فصل[1]

ثمَّ تأمَّل هذه النَّملةَ الضعيفةَ وما أُعطِيَته من الفطنة والحيلة في جمع القُوت وادِّخاره وحِفْظه ودفع الآفة عنه؛ فإنك ترىٰ في ذلك عِبَرًا وآيات.

فترىٰ جماعةَ النَّمل إذا أرادت إحراز القُوت خرجت من أسرابها طالبةً له، فإذا ظَفِرَت به أخذت طريقًا من أسرابها إليه وشَرَعت في نقله، فتراها رِفقتين: رِفْقةً[2] حاملةً تحملُه إلىٰ بيوتها سِرْبًا ذاهبًا، ورِفْقةً خارجةً من بيوتها إليه لا تخالطُ تلك في طريقها، بل هما كالخيطيْن، بمنزلة جماعة النَّاس الذَّاهبينَ في طريقٍ والجماعة الرَّاجعينَ من جانبهم في طريق.

فإذا ثَقُل عليها حملُ الشيء من ذلك ٱجتمعت عليه جماعةٌ من النَّمل وتساعدَت علىٰ حمله، بمنزلة الخشبة والحجر الذي تتساعدُ الفئةُ من النَّاس عليه.

فإذا كان الذي ظَفِرَ به منهنَّ واحدةً ساعدَها رِفقتُها عليه إلىٰ بيتها وخلَّوا بينها وبينه، وإن كان الذي صادفه جماعةً منهنَّ تساعَدنَ عليه ثمَّ تقاسمنه علىٰ باب البيت.

ولقد أخبرني[3] بعض الصادقينَ[4] أنه شاهدَ منهنَّ يومًا عجبًا، قال: رأيتُ نملةً جاءت إلىٰ شِقِّ جرادةٍ فزاولَتْهُ، فلم تُطِق رفعَه[5] من الأرض،

(١) «الدلائل والاعتبار» (٣٦)، «توحيد المفضل» (٦٥ ـ ٦٦).

(٢) الرفقة ـ بضم الراء وكسرها ـ: الجماعة المترافقون. «اللسان».

(٣) (ح، ق، ن): «أخبر». وفي «شفاء العليل» (٢٣٩): «حدثني من أثق به».

(٤) (ن): «العارفين».

(٥) (ح، ن): «حمله».

فذهبَت غيرَ بعيد، ثمَّ جاءت معها بجماعةٍ من النَّمل. قال: فرفعتُ ذلك الشِّقَّ من الأرض، فلمَّا وصلَت النَّملةُ برِفْقتها إلىٰ مكانه دارت حوله ودُرْنَ معها فلم يجدنَ شيئًا، فرجَعْن، فوضعتُه، ثمَّ جاءت فصادفَتْهُ فزاوَلَتْهُ فلم تُطِق رفعَه من الأرض، فذهبَت غيرَ بعيد، ثمَّ جاءت بهنَّ، فرفعتُه، فدُرْنَ حول مكانه فلم يجدنَ شيئًا، فذهبنَ، فوضعتُه، فعادت فجاءت بهنَّ، فرفعتُه، فدُرْنَ حول المكان، فلمَّا لم يجدنَ شيئًا تحلَّقنَ حلقةً وجعلنَ تلك النَّملةَ في وسطها ثمَّ تحامَلْنَ عليها فقطَّعنَها عضوًا عضوًا وأنا أنظُر!![1].

ومن عجيب الفطنة فيها[2]: إذا نَقَلت الحَبَّ إلىٰ مساكنها كسَّرته لئلَّا ينبُت، فإن كان مما ينبتُ الفلقتان منه كسَّرته أربعًا، فإذا أصابه ندًىٰ أو بللٌ وخافت عليه الفسادَ أخرجَتْه للشمس ثمَّ تردُّه إلىٰ بيوتها، ولهذا ترىٰ في بعض الأحيان حَبًّا كثيرًا علىٰ أبواب مساكنها مكسَّرًا ثمَّ تعودُ عن قريبٍ فلا ترىٰ منه واحدة.

ومن فطنتها: أنها لا تتَّخذُ قريتَها[3] إلا علىٰ نَشْزٍ من الأرض[4]؛ لئلَّا يَفِيض عليها السَّيلُ فيُغْرِقَها، فلا ترىٰ قرية نملٍ في بطن وادٍ ولكنْ في أعلاه وما ٱرتفع عن السَّيل منه.

---

(١) انظر: «الحيوان» (٤/ ٦، ٧). وانظر تعليق ابن تيمية علىٰ القصة ـ وقد حكاها له المصنف ـ في «شفاء العليل» (٢٤٠).

(٢) (ن، ح): «ومن عجيب أمرها الفطنة فيها».

(٣) (ر): «الزبية»، (ض): «زبيتها». والزُّبية: الرابية لا يعلوها الماء.

(٤) النَّشز ـ بإسكان الشين وفتحها ـ: المتن المرتفعُ من الأرض.

ويكفي من فطنتها ما قصَّ الله سبحانه[1] في كتابه من قولها لجماعة النَّمل ـ وقد رأت سليمان عليه الصَّلاةُ والسَّلام وجنودَه ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

فتكلَّمت بعشرة أنواعٍ من الخطاب في هذه النَّصيحة: النِّداء، والتَّنبيه، والتَّسمية، والأمر، والنَّص، والتَّحذير، والتَّخصيص، والتَّعميم[2]، والاعتذار.

فاشتملت نصيحتُها مع الاختصار علىٰ هذه الأنواع العشرة[3].

ولذلك أعجبَ سليمانَ قولُها، وتبسَّم ضاحكًا منه، وسأل الله أن يُوزِعَه شُكرَ نعمته عليه لـمَّا سمعَ كلامها[4].

ولا تُستبعَدُ هذه الفطنةُ من أمَّةٍ من الأمم تسبِّحُ بحمد ربها كما في «الصَّحيح»[5] عن النبي ﷺ قال: **«نزل نبيٌّ من الأنبياء تحت شجرة، فلدغته نملة، فأمر بجَهازه[6] فأُخرِج، ثمَّ أحرقَ قريةَ النَّمل، فأوحىٰ الله إليه: مِنْ أجل أنْ لدغتكَ نملةٌ أحرقتَ أمَّةً من الأمم تسبِّح!، فهلَّا نملةً واحدة؟!»**.

---

(١) (ح، ن): «ما نص الله عز وجل».

(٢) (ت): «والتفهيم» بدل «والتعميم». وكذا في (ق)، ثم أصلحت في طرتها. (د): «والتفهم»، وفي الطرة: «لعله: والتعميم».

(٣) والاختصار عاشر الأنواع. وانظر لهذه اللطيفة: «اجتماع الجيوش الإسلامية» (٣٢٨)، و«شفاء العليل» (٢٣٧)، و«المدهش» (٢١٠)، و«زاد المسير» (٦/ ١٦٢).

(٤) (ح): «لما سمع من كلامها».

(٥) صحيح البخاري (٣٠١٩)، ومسلم (٢٢٤١) من حديث أبي هريرة.

(٦) أي: متاعه ورَحْله.